الشاعر والأمة

للأستاذ إيليا أبو ماضي

خير ما يكتبه ذو مِرَّتم ... قصة فيها لقوم تذكره

* * *

كان في ماضي الليالي أمة ... خلع العز عليها حبره
يحمد النازل في أكنافها ... أوجهاً ضاحكة مستبشره
ويسير الطرف من أريافها ... في مثان حاليات نضره
لم يقس شعب إلى أمجادها ... عدها الباذخ إلا استصغره
همها في العلم تعلي شأنه ... بينها، والجهل تمحو أثره
ما تنيب الشمس إلا أطلعت ... للورى عمدة أو مأثره
فتمني الصبح تندو شمسه ... وتمنى الليل تندو قمره
ومشى الدهر إليها طائعاً ... فشت تاهة مفتخره

* * *

كان فيها ملك ذو فطنة ... حازم يصفح عند القدره
يشتق الأمر الذي تشقه ... فإذا ما استنكرته استنكره
بلغت في عهده مرتبة ... لم تنلها أمة أو جمهره
فإذا أعطت صديقاً موثقاً ... أشفقت أعداؤه أن تخفره
وإذا حاربها طاغية ... كانت الظافرة المنتصره
مات عنها فأقامت ملكاً ... طائش الرأي كثير الثرثره
حوله عصبة سوء كلما ... جاء إدًّا أقبلت معتذره
حسنت في عينه آثامه ... وإليه نفسه المتكبره
وتنادى القوم في غفلتهم ... فتنادى في اللاهي السكره
زحزح الأمة عن مركزها ... وطوى رايتها المنتشره
ورأت فيها الليالي مقتلاً ... فرمتها فأصابت مدبره
فهوت عن عرشها مصروعة ... مثلما ترمى بسهم قبره

* * *

كان فيها شاعر مشتهر ... ذو قوافٍ بينها مشتهره
كلما هزت يداه وتراً ... هز من كل فؤاد وتره
نفس الحظ وهل أتعس من ... شاعر في أمة محتضره؟
يقرأ الناظر في مقلته ... ثورة ظاهرة مستتره
ما يراه الناس إلا واقفاً ... حائراً كالريح في أطلالها
باكياً كالسحب المنهمره
وهي في أهوائها لاهية ... وكذاك الأمة المنحدره
ما رأت مهجته المنفطره ... لا ولا أدمعه المنحدره
فشكاة الشعر مما سامه ... وشكاة الليل مما سهره
ثم لما عبث الناس به ... مزق الطرس وشق المحبره

* * *

مر يوماً فرأى أشياخها ... جلسوا يبكون عند القبره
قال: ما بالكم ما خطبكم ... أفي كنز في الثرى أو جوهره؟
ومن الثاوي الذي تبكونه ... قيصر أم تبع أم عنتره؟
قال شيخ منهم محدودب ... ودموع اليأس تنشى بصره:
إن من تبكيه لو أبصره ... قيصر أبصر فيه قيصره
كيف يا جاهل لا تعرفه ... وحداة العيس تروي خبره
هو ملك كان فينا ومضى ... فمضت أيامنا الزدهره
ولبثنا بعده في ظلم ... داجيات فوقنا متكدره
والذي كان بنا «معرفة» ... لصروف الدهر أمسى نكره
فانتهى التاج إلى متسف ... لم يزل بالتاج حتى نثره
كل ما تصبو إليه نفسه ... مُعْسِر أو خمرة معتصره
مستهين بالليالي وبنا ... مستهين بالطغام الفجره
كلما جاء إليه خائن ... واشياً قرّبه واستوزره
فإذا جاء إليه ناصح ... شك في نياته فانتهره
مستبد باذل في لحظة ... ما ادّخرناه له وادخره
يهب المرء وما يملكه ... وعلى الموهوب أن يستغفره
هزأ الشاعر منهم قائلاً: ... بلغ السوس أصول الشجره
رحمة الله على أسلافكم ... إنهم كانوا تقاة بررة
رحمة الله عليهم إنهم ... لم يكونوا أمة منشطره
إن من تبكونه يا سادتي ... كالذي تشكون فيكم بطره
إنما بأس الألى قد سلفوا ... قتل النهمة فيه والشره
فاحبسوا الأدمع في آماقكم ... واتركوا هذي المظام النخره
لو فعلتم فعل أجدادكم ... ما قضى الظالم منكم وطره
ما لكم تشكون من محنتكم ... رثتُ ألسنكم أن تشكره
وجعلتم منكمُ عسكره ... وحلفتم أن تطيعوا عسكره
كيف لا يبني ويطغى آمر ... يتقي أشجعكم أن ينظره
ما استحال الهر ليثاً إنما ... أسد الآجام صارت هبره
وإذا الليث وهت أظفاره ... أنشب السنور فيه ظفره

«الولايات المتحدة»

إيليا أبو ماضي